ابن ملك في شوارع مصر

(قصة)

زارت مصر في هذه الاثناء احدى ملكات اوروبا و بعد ان شاهدت مع ولديها الآثار المصرية الفخيمة والمباني الجميلة عادت من سياحتها في النيل مرتاحة الى ما رأته من عظمة مصر الماضية ونقدمها الحالي في حلبة العمران شيئاً فشيئاً . ولكن احد ولديها قال لها بعد عودتها : لقد بهرتْ عيني يا اماه مما شاهدتُ من محاسن مصر وآثارها العظيمة . وانا مسرور من هذه السياحة . ولكني لا اكتمكِ انني لا احسب نفسي شاهدت كل ما اريد مشاهدته في مصر الاَّ اذا نزلت الى شوارع مدنها وطفت بنفسي بين احيائها لارى الحياة الحقيقية فيها . فان ما رأيناه اكثره من ظواهر مصر خصوصاً مصر الماضية .

وليس يُستكبر على ابناء الملوك ايّاً كان سنهم ان يلاحظوا هذه الملاحظة المهمة فان عقولهم منذ الصغر تُدرَّب تدريباً خصوصياً لتعدّ لوظيفتها الخطيرة . فاذنت لفيكتور امه في ما سألها اياه لانها رأت سؤاله حقاً . وودت لو ان نظام وظيفتها يسمح لها بان تصنع صنعه اي ان تخرق ولو ساعةً ذلك الجدار الكثيف الذي يفصلها عن بني الانسان ويضعها في مرتبة هي ارفع منهم كثيراً ولكنها بعيدة عنهم كثيراً

فاصطحب الصبي فيكتور رفيقاً من حاشية امه وترجماناً من اهل البلاد وخرج الى الشوارع متنكراً كعامة الناس . فزار القهاوي الكبيرة التي هي في النهار مجتمع الكسالى وفي الليل مجتمع الذين يترددون اليها يطلبون فيها التسلي وقطع الوقت عبثاً بدلاً من صرفه بهدوء وفائدة في وسط عائلتهم . وتفرّج في مسيره بمشاهدة الشوارع الواسعة والمخازن الجميلة اللامعة تقف عليها المركبات . والحدائق الغناء تحيط بالمنازل فتحسّن الهواء بما ينبعث منها . والمركبات تمر مرَّ البرق تروح خفافاً وتعود ثقالاً . احياناً فيها الرجال ولوائح اشتغال البال على وجوههم مما يدل على انهم مسرعون الى اشغالهم . واحياناً فيها السيدات ولوائح اللطف وفراغ البال مرسومة على جباههن وفي افواههن ابتسامات جميلة يوزعن منها بلا قصد على طول الشارع كبستانيات ينثرن في طريقهن وروداً غضاً . وبين اولئك وهؤلاء شعب نشيط عامل في حركة دائمة كانه البحر الخضم وهو يروح ويجيء في حوائجه . كأنهم ممثلون مختلفو الهيئات والملابس والازياء يمثلون في ملعب الحياة رواية من الروايات

وبعدان مرّت على فكتور ساعتان وهو يشاهد آثار المدينة اجمالاً وتفصيلاً تعب فقصد مع رفيقيه احدى القهاوي الكبيرة التي على طريقه وجلسوا فيها . فلم يستقر بهم المقام حتى احاط بهم مساحو الاحذية من كل صوب وهم بين كهول وشبان وصبيان . فنظر الفتى الى

حتى احاط بهم مساحو الاحذية من كل صوب «صفحة ١١٢ سطر ٢»

ما حوله مستغربًا وسأل الترجمان ماذا يريد هؤلاء . ولم يخطر في بال فكتور انهم فوضويون يقصدون به شرًا لانه كان يعرف ان نزاهة الشعب المصري وانطباعه على المسالمة ارفع من ان تخرج من احشائه آفة كتلك الآفة . هذا فضلاً عن ان الآلات التي في ايديهم كانت متشابهة وهي عبارة عن صندوق صغير من الخشب «وفورشة» يضربون بها عليه . ولكن الترجمان ازال حيرته بقوله انهم يطلبون مسح الاحذية . فضحك الصبي وقال نحن هنا ثلاثة وهم اكثر من عشرة . ثم انه تناول من جيبه عدة غروش والقاها اليهم من بعيد . فتصور ما قام بينهم من النزاع والضرب والزحام للحصول عليها

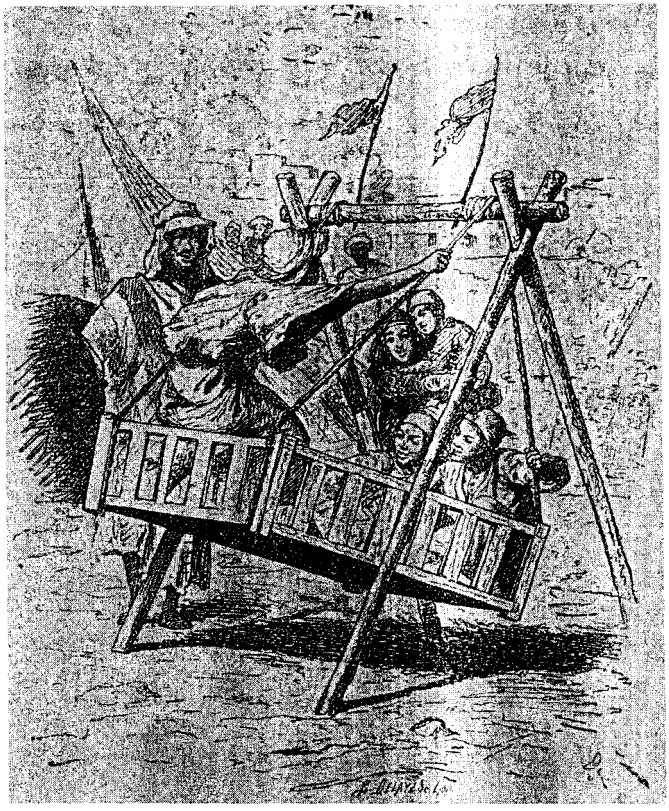

ذلك انه شاهد امامه في ساحة صغيرة ارجوحة منصوبة « صفحة ١١٥ سطر ٦ »

وبعد ان ضحك فكتور من هذا المشهد قليلاً نهض مع رفيقيه وهو يقول لها · عندنا لا نحتاج الى بشر يمسحون الاحذية لان في منعطف كل شارع تقريباً آلة ميكانيكية للمسح · فكل من يضع فيها قطعة معلومة من النقود ويلقي قدمه عليها تشرع في مسح حذائه كابرع المساحين · واذا لم يضع فيها شيئاً لا تتحرك ابداً · فضحك الترجمان من هذا الاختراع الغريب · فاردف الامير بقوله : وليس لي على هؤلاء البشر الا اعتراض واحد وهو انني نظرت بينهم رجالاً اشداء اقوياء اذا ربطوا في شجرة وا جفلوا اقلعوا تلك الشجرة من قوتهم · فهل يحسن بمن هذه قوته ان يتولى مسح الاحذية · ولماذا لا يتركون هذه الصناعة الهيّنة للصبيان والضعفاء · فهمّ الترجمان بان يجاوبه ليخبره بان المحافظة كانت قد عزمت على ذلك ولكن الجمعية الارمنية وبعض وجوه الارمن توسطوا فيه وارجعوها عنه لان كثيرين من قومهم الكهول يحترفون هذه الحرفة · ولكن رفيق الامير بادره بقوله بلغته : وما نصنع بهذا حرية

فاذا به بائع السوس ينادي على بضاعته «صفحة ١١٥ سطر ١٠»

الانسان اي حرية الصناعة والتجارة ايها الامير . فان الانسان حر مطلق في اختيار الصناعة التي يريدها . فاحمر وجه الامير واجابه بشيء من الغضب : ان كلمة الحرية هذه لتبعث حتى الى اقاصي الدنيا

ولكن لم يلبث الامير الصغير بعد قوله هذه العبارة التي هي اكبر منه والتي لو سمعها احد من قومه في بلاده لاقاموا القيامة عليه — ان تغير وجهه من العبوسة الى البشاشة . ذلك انه شاهد امامه في ساحة صغيرة ارجوحة منصوبة وجماعة يتسلون بها . فوقف يضحك وسأل الترجمان عنها فاخبره انها لعبة من ملاهي الشعب في الاحتفالات . فبقي الامير واقفاً نحو عشر دقائق يتفرج . ولم يلفته عن ذلك المنظر الا صياح صائح وراءه : شربات شربات . فاجفل الامير والتفت الى الصائح فاذا به بائع السوس ينادي على بضاعته . ولما علم الامير بضاعته سأل الترجمان : وهل يشرب جميع الشاربين من آنية واحدة . فاجاب الترجمان

« فقيل له هذا السقاء يبيع الناس الماء » (صفحة ١١٦ سطر ٣)

نعم . فقال الامير هذه احدى العالل في سرعة انتقال العالل . ثم سار وهو يفتكر . وفيما هو سائر ابصر رجلاً يحمل على ظهره ضرفًا فسأل ما هذا فقيل له . هذا السقاء يبيع الناس الماء . فقال هذا امر يعيدنا الى موضوعنا السابق ومن اين يأتي بالماء فاجاب الترجمان من النيل . ففتح الامير عينيه دلالة الاستغراب وسأل : من النيل رأسًا بلا ترشيح ولا تصفية ؟ فاجاب الترجمان بل هناك حنفيات تأتي بالماء وقد يأتي به السقاء رأسًا ايضًا . ولكني لا اكتم الامير انه بلا ترشيح وان كان هذا القول مما يجب ان نخجل منهُ . على ان العيال

وهو يفتش في ثيابه في نور الشمس عن الهوام المؤذية التي فيها «الصفحة ١١٩ السطر ١٤»

وهو واقف امام رجل وامرأة ضعيفين جالسين في الشارع وامامها كيس الشحاذة (الصفحة ١١٩ السطر ١٢)

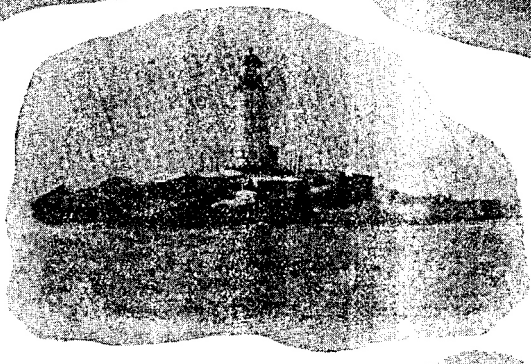

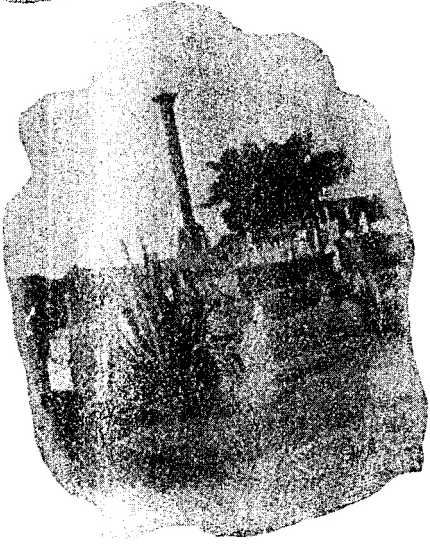

بالغ الحلوة
عمود بومبيوس

فنار الصغير عند مدخل البوغاز

بالغ الميموناده
فنار الاسكندرية الكبير

التي تعرف ضرر شرب الماء بلا ترشيح ترشحه دائماً وهي تأخذ ماءها من انابيب شركات المياه . ويقال ان المجالس البلدية تسعى في وضع مرشحات رسمية على النيل ولكننا لا نعلم متى تنتهي من هذا المشروع

وبينما كان الامير سائراً يصغي الى ترجمانه واذا كفهر وجهه بغتة . ذلك انه وقع نظره على منظر اثر فيه . فسأله ترجمانه ما هذا ؟ فاجاب الترجمان مضطرباً : هذه هي الحالة التي وصفها فيكتور هيغو في كتابه « التعساء » فقال الامير وهل ليس في المدينة ملجأ للشيوخ والمرضى الفقراء يأوي اليه هؤلاء المساكين التعساء بدلاً من ان ينطرحوا في الشوارع . فاجاب الترجمان نعم في المدينة ملاجىء ولكنها للاجانب على ان جمعية خيرية وطنية في الاسكندرية عزمت على انشاء ملجأ كبير وقد فتحت لذلك اكتتاباً تحت حماية الجناب الخديوي . فاجاب الامير قد وهبتُ هذا الملجأ مائة جنيه وانني ارجو ان يتمكن اهل الخير من انشائه

وكان الامير يتكلم وهو واقف امام رجل وامرأة ضعيفين جالسين في الشارع وامامهما كيس الشحاذة وبجانبهما بعيداً عنهما رجل آخر طاعن في السن منطرح في الشارع وهو يفتش في ثيابه في نور الشمس عن الهوام المؤذية التي فيها . . .

على ان هذه المناظر قبضت نفس الامير فرام الفرار منها لان النفوس الحساسة لا تطيق منظر الشقاء والالم . فنادى سائقاً وركب مع رفيقيه مركبة قاصداً الميناء لاستنشاق هواء البحر الذي يشرح الصدر . ومن هناك ركب زورقاً الى الثغر الصغير على فم البوغاز بعد ان مرّ بالفنار الكبير . ولم يسعه وهو هناك الاّ ان يذكر ما قرأه عن منارة الاسكندرية القديمة

ولما طرد هواء البحر كل ما كان في صدر الامير من الانقباض وازال ما كان في اعضائه من التعب عقيب هذه السياحة الطويلة عاد الى امه واخذ يقصُّ عليها تفاصيل نزهته . وكان تارة يضحك وتارة ينقبض في اثناء قصته تبعاً للعواطف التي كانت تقوم في نفسه في اثناء الحكاية . وكان آخر قوله لها : لم ارَ يا اماه شعباً لطيفاً هادئاً قنوعاً مسالماً كالشعب المصري . فليت عرشنا كان قائماً على ظهر هذا الشعب او كان هذا الشعب قائماً تحت عرشنا هناك